استبقاءً لحياتك وأمْنكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيِّم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلنَ يعتدى عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسوؤك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُجرى مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذى ﴿ يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كلاءة صادرة من الله الرحمن .

كما فى قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذى أراده الله فيه ؛ لأن الحفْظَ صادر من الله ، والحفَظة مكلّفون من قبله تعالى بحفظكم ، وليس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك فى النهار وفى الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك ، ويدفعون عنك الأذى .

وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً فى فراشه ، ولم يُصبْه بسوء ، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف ، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له ، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن : لا أحدَ يرقبك ويحفظك فى نومك ممَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .

وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحفْظ من المعاطب ، فمن كلاءته سبحانه أن يمدّكم بمقوِّمات الحياة ، فالشمس بضوئها ، والقمر

بنوره ، والأرض بنباتها ، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به ، وتسخرون من رسله وأهل طاعته ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢)﴾ [الأنبياء] وما كان يصح أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾

ألَهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله ؟ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم ، وكيف ينصرون أنفسهم ، وهى أصنام من حجارة نحتَها عُبَّادها على أشكال اختاروها ؟ كيف ينصرون أنفسهم ، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه ويقيمه ؟

وقوله تعالى : ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾ [الأنبياء] كانوا قديماً فى البادية ، إذا فعل أحدهم ذنباً ، أو فعل فَعْلة فى إحدى القبائل ، واحتاج إلى المرور عليهم فى طريقه يذهب إلى واحد قوىٍّ يصاحبه فى مشواره ، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤)﴾ [الشعراء]

فالمراد : يصحبه كى يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون فى صُحْبتهم لننجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، فلا هذه ولا تلك .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى : أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلّبون فى نعَم الله ، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك ، فخذوا منهم عبرةً : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا(١) الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الروم]

ومع ذلك أُخذوا أَخْذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا(٢) آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

وفى موضع آخر : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) أثار الأرض : حرثها وشقها وقلّبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط المياه . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) القرن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن من الناس : أهل زمان واحد . قال الأزهرى : الذى يقع عندى والله أعلم أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبى أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلّت السنون أو كثرت » . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

وهذه آية من الآيات التى وقف عندها بعض علمائنا من المعنيين بعلميات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية الشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعنى : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الاكتشاف فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤) ﴾ [الانبياء] يعنى : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤) ﴾ [الانبياء] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن فى القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤) ﴾ [الانبياء] رأى هنا علمية أم بصرية ؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا فى القرن العشرين ، ولم ينتبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهى ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمةَ علم ، ولا أمة ثقافة ، ولا شيء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب ؟

نقول : إنْ كانت رأى بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرة فى الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه ؛ لأنه جاء ليقضى على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التى تُهدم وتُخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص

الناس ، وننقص مظاهر العمران في جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة في أرض الإيمان[1] . وهذه الظاهرة حدثت في جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ، والآية مكية ؟ نقول : كَوْن الآية مكية لا يقدح في المعنى هنا ، فليس من الضروري أن يَرَوْا ذلك في أنفسهم ، ويكفي أنْ يروها في الأمم السابقة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) ﴾ [الفجر]

وإن اعتبرنا (رأى) علمية ، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب ممَّنْ تحالفوا معهم ، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الأنبياء] يعني : أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها ، أم أن هذا لم يحدث ، وهم الغالبون ؟ أيهما الغالب : رسل الله ، أم الكافرون ؟ الإجابة أنهم غُلبوا واندحروا ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر]

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أولم يروا أنَّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٢٠) : « القول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية وهذا اختيار ابن جرير » .

أى : أن رسـول الله مـا أبلغكم بشىء من عند نفسـه ، إنمـا كل ما جـاء به من وعد ووعيـد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيـئاً كما تقولون ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، إنما ربه يوحى إليه .

فلو قال مـحمد : إنما أنذركم .. لكان لكم حق أنْ تتـشكَّكوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذى يملك أعنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)﴾ [الأنبياء]

وحاسَّة السمع هى أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقـبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسـمع أولاً ، لينطق ما سـمعـه ؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المـصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن ـ كـما قلنا ـ تسبق العين فى أداء مهمتها .

لذلك قدَّمه الحق سبـحانه ، فقال : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

والسـمع هو الآلة التى لا تتـعطَّل عن مهـمـتهـا ، حتى ولو كـان الإنسان نائماً ؛ لأن به يتم الاستدعاء ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويـلة ضرب على آذانهم ، وعطَّل عندهم حاسة السمع حـتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خـارج الغار ، فقال : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

ومعنى : ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ.. (٤٥)﴾ [الأنبياء] صحيح أنهم يسمعـون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سـماعٌ لا فائدةَ

منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرتَ العامل مثلاً بشيء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش ؟ ولذلك سماهم القرآن : صُمّاً .

وقوله تعالى : ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء] أى : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادى ، إنما يتغافلون وينصرفون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء] حين يُخوِّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٌ قبل أوانه ، ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره ساعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعة فى التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلِّم شخصاً فى أمر لا يعجبه ، فتجده « أذن من طين ، وأذن من عجين »ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً ، كأحدهم لما قال لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السر ؟ قال : نعم سِرُّك فى بير ، قال : أعطنى عشرة جنيهات ، فردَّ عليه : كأنِّى لم أسمع شيئاً !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الآن فقط تنبهتم ووَعَيْتُم ؟ الآن بعد أن مسَّكم العذاب ؟

ومعنى : ﴿مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] أي : مساً ولمساً خفيفاً ، والنفحة : هي الريح اللينة التي تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها ، كأن تحمل لك الريحُ رائحةَ الورود مثلاً ، هي لا تحمل لك الورود نفسها ، إنما رائحتها ، وتظل الورود كما هي .

كذلك هذه المسَّة من العذاب ، إنها مجرد رائحة عذاب ، كما نقول لفح النار الذي نشعر به ، ونحن بعيدون عنها .

والنفحة : اسم مرَّة أي : تدل على حدوثها مرة واحدة ، كما تقول : جلس جلسة أي : مرة واحدة ، وهذا أيضاً دليل على التقليل . (فمسَّتْهُمْ) تقليل و (نَفْحَة) تقليل ، وكونها مرة واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضِجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبديّ ؟!

وقوله تعالى : ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التي طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل ؟ إذن : المسألة - كما قلنا - ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد في النفس وفي الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقِرُّون على أنفسهم ويعترفون : ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء]

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ (١) أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحى ، وصَمّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط ، فلماذا هذه النُّقْلة ؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذى قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شيء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتهم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة تُقدَّر بها الأشياء من حيث كثافتها ؛ لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس .. الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن - تقريباً - فى باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل .. الخ .

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً من الحجارة تساوى كيلو مثلاً ، ويستعملونها فى الوزن ؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

---

(١) الخردل : نبات له حَبٌّ صغير جداً ، وإذا جئْت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر ، وهو نبات عُشبى تستعمل بذوره فى الطب . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] . أى : إن كان عمل الإنسان فى الخير أو الشر صغيراً قليلاً فى وزن حبة واحدة من الخردل أحضرها الله يوم الحساب وحاسبه عليها . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

وهنا تكلَّم عن الشيء الذى يُوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التى لها كثافة هى الأكثر ، وكانوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن ؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشّاً مُنتفشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد فى الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقِّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض . إذن : العُمْدة فى التقدير : الثقل .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ(١) الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن] فهل هى موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد ؟

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره ، بل فى وقت واحد ؛ لذلك لما سُئل الإمام على - كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب الله الخَلْق جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد . فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه .

والقِسْط : صفة للموازين ، وهى مصدر بمعنى عدل ، كما تقول فى مدح القاضى : هذا قاضٍ عادل . أى : موصوف بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاضٍ عَدْل ، كأنه هو نفسه عَدْل أى (معجون بالعدل) ؛ لذلك نقول فى أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل . ولا نقول : العادل .

وهذه المادة (قسط) لها دور فى اللغة ، فهى من الكلمات المشتركة التى تحمل المعنى وضده ، مثل (الزوج) تُطلق على

---

(١) قال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٤٠٥) : « قرن وضع الميزان برفع السماء ؛ لأنه تعالى عدَّد نعمه على عباده ، ومن أجلّها الميزان ، الذى هو العدل ، الذى به نظام العالم وقوامه » .

الرجل والمرأة ، و (العَيْن) تطلق على : العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذهب والفضة .

كذلك (القسْط) نقول : القسْط بالكسر مثل : حمْل بمعنى العدل من قَسَط قسْطاً . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] ونقول : القَسْط بالفتح يعني : الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] أي : الجائرون الظالمون .

والقسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعني كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل في الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد ﷺ في مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أوْلى من عدل محمد لذلك قال : ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. (٥)﴾ [الأحزاب] جاء ليبطل التبني ؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد في الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة في شرع الله لا تستقيم في وجود هذه

المســألة ، وإلاّ فكيف سيكون حال الأســرة حين يكبر المـتبنّى ويبلغ مَبْلَغَ الرجال ؟ ومـا موقفه من الزوجة ومن البنت ، وهو فى الحـقيقة غريب، عن الأسرة ؟

ومسألة الموازين هذه من المـسائل التى وجد فيها المسـتشرقون تعارضـاً فى ظاهر الآيات ، فجـعلوا منها مَـأخَذاً على كـتاب الله ، من ذلك قـولهم بالتنـاقض بين الآيتـين : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.. (٤٧)﴾ [الأنبياء] وقوله تـعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(١٠٥)﴾ [الكهف] حيث أثبت الميزان فى الأولى ، ونفاه فى الثانية .

وقلنا : إن هؤلاء معذورون ؛ لأنـهم لا يملكون الملكة اللغوية التى تمكّنهم من فَهْم كلام الله . ولو تأملنا اللام فى ﴿نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] لانحلّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفـاع ، كما يقولون فى لغة البـنوك : له وعليه . والقـرآن يقول : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

فالمعنى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : وزناً فى صالحـهم ، إنما نقيم عليـهم ونَدينهم . كذلك نجـد أن كلمة الوزن تُستـعمل فى اللغة إمّا لوزن الـمادىّ ، أو لوزن المعنى ، كمـا نقول : فلان لا وَزْنَ له فى الرجال .

وعلى هذا يكون الـمعنـى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومـادتهم ، إنمـا الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كـان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة فى قـصة ابن نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا بُنوّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم فى الآخرة ، كما كانت لهم فى الدنيا ، كما جاء فى قصة صاحب الجنتين الذى قال لأخيه متباهياً مفتخراً :

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ فى الآخرة ، فالوزن فى القيامة للأعمال ، لا للأعيان .

إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم ؛ لذلك قال النبى ﷺ لقرابته : « لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأحسابكم »[1] .

وقال ﷺ :« يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنِّى لا أغنى عنك من الله شيئاً »[2] .

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها فى هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً .. (٤٧) ﴾ [الأنبياء] مع أن القاعدة : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردَّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائى يوم القيامة هم المتقون ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، لا يأتى الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتقولون : يا محمد ، فأقول هكذا ، وأعرض فى عطفيه » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٩٤) .

(٢) عن حذيفة قال : جئت إلى النبى ﷺ والعباس جالس عن يمينه وفاطمة ـ رضى الله عنها ـ عن يساره . فقال : يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ اعملى لله خيراً ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً يوم القيامة » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شيء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمي للكيلو ، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوياً في الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

ومعنى : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلَّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصى كل شيء فى الحساب ، وحبَّة الخردل تدل فى صغَرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فلا أحدَ يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضَبْط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزنَ الوزن المضبوط ؛ لأن المعيار الحديد الذى تزن به عُرْضة فى استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً ، وهذا فى صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها . إذن : أى ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى فى الموازين الحديثة التى تضمن لك أقصى درجات الدقة

فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية . وهذا معنى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يُسلِّي رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذجَ من إخوانه أُولي العزم[1] من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى - عليه السلام - لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] وقال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه]

والفرقان : هو الفارق القوي بين شيئين ؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ،

(١) يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٧٢) : « قد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ . وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون (من) في قوله (من الرسل) لبيان الجنس والله أعلم » .

وتقول : قرأت قراءة ، وقرأت قـرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسـماء القرآن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ① ﴾ [الفرقان]

فالفرقان ـ إذن ـ مـصدر يدلُّ على المبالغة ، تقـول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة فى المعنى ، وأن الفَرْق فى هذه المسـألة فَـرْق جليل وفَـرْق واضح ؛ لأن كـونك تُفـرِّق بين شيئـين الأمر بينهما هيِّن تسـمى هذا فَرْقاً ، أمّا أن تفرق بين شـيئين يتـرتب على ذلك خطورة فى تكـوين المـجتـمع وخطورة فى حـركـة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً .. ㉙ ﴾ [الأنفال] وتقوى الله لا تـكون إلا بتنفيـذ أوامره وتعـاليمـه الواردة فى القـرآن الذى نزل على محـمـد ، والفرقـان هنا يعنى : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر مـا تتقى الله باتباع الفـرقان الأول يجعل لكم الفـرقان الثـانى ، وتتكوَّن لديـكم فـراسة المـؤمن وبـصيـرته ، وتـنزل عليكم الإشراقات التى تُسعف المؤمن عندما يقع فى مأزق .

ألاَ تراهم يقـولون : فـلان ذكى ، فـلان حـاضر البـديهـة . أى : يستحـضر الأشياء البـعيدة وينتفع بها فى الوقـت الحاضـر ، وهذا من توفيق الله له ، ونـتيجـة لبصيـرته وفراسـتـه ، وكانت العـرب تضرب

المثل فى الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر[١] :

إقْدامُ عَمْروٍ فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله فى آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثورى[٢] يتناوله وينتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العام ، وأريد أنْ أراه مصلوباً فى مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثورى يقيم بها فى جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثورى ويعتزان به .

وفى يوم كان الثلاثة فى المسجد والثورى مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه فى حِجْر أحدهما ، ورجْلَيْه فى حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثورى : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكَّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يَضعف اعتقاد الناس فى المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثورى : والذى نفسى بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصِيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثورى .

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام (٢٣١هـ) عن ٥١ عاماً .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مُضَر أبو عبد الله ، أمير المؤمنين فى الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧ هـ) ، كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى راوده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى ، مات مستخفياً بالبصرة من المهدى عام (١٦١ هـ) (الأعلام للزركلى ٣/١٠٤) .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله ، ولا يصدر فى أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدى الخليفة العباسي أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار ، والصبى يُلْقِى عليهم درساً ، فتعجب المهدى وقال : أفٍّ لهذه السعانين يعنى الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم ؟! ثم دنا من الصبى يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له : كم سِنّك يا غلام ؟ فقال الصبى : سني سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدى - معترفاً بذكائه وأحقيته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان - إذن - لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصبح علَماً على القرآن ، فهناك فَرْق بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمَا إنْ سُمِّى به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل فى مادة (فَرَق) فى القرآن يجد أن لها دوراً فى قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ .. (٥٠) ﴾ [البقرة]

والفَرْق أنْ تفصل بين شىء مُتصل مع اختلاف هذا الشىء ، وفى علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى - عليه السلام - ليس فَرْقاً بل فرقاناً ،

لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفرق السائل إلى فِرْقَيْن ، كل فِرق كالطود[1] العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أى : نوراً يهدى الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون فى دروب الحياة ؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتحطم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء - إذن - هام وضرورى فى مسيرة الإنسان ، وبه يهتدى لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بينة ، فلا يَتْعب ، ولا يُتعِب الآخرين .

﴿وَذِكْرًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أى : يذكِّر ويُنبِّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات تكوَّنَ الران الذى يحجب الرؤية ويُعمى البصيرة ؛ لذلك لما شبه النبى ﷺ غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفى رواية : « عوذاً عوذاً »[2] أى : يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحصير ؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير فى البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أُشْرِبها - يعنى قَبِلَها - العود تلو العود - نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . قال تعالى : ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] .

(٢) وقال ابن الأثير : روى بالذال المعجمة ، كأنه استعاذ من الفتن . [لسان العرب - مادة : عوذ] .